بوابة محفوظ عبد الرحمن

عبدالله السناوي*

بقدر اقتراب الأدب من الأحداث الفارقة، التي غيرت وجه التاريخ، بلا تدليس في وقائعها، أو تجهيل بروح عصرها، يكتسب قيمته وتأثيره على الذاكرة العامة جيلا بعد آخر. قد يساعد هذا النوع من الأدب في شرح نظريات الأمن القومي دون ادعاء وبأبسط لغة ممكنة. لا كهنوت في الأدب ولا حواجز تمنع الفهم العام مثل تلك التي يصطنعها دون مقتضي أغلب الذين يتناولون قضايا الأمن القومي، كأنها أسرار خلف أبواب مغلقة يقف عليها حراس وحجاب.

وقد كان عمل المؤلف والسيناريست الراحل «محفوظ عبد الرحمن» «بوابة الحلواني» اقترابا دراميا نادرا بلا كهنوت وحواجز من جوهر نظرية الأمن القومي في مصر. نظريات الأمن القومي لا تخترع ولا تنشأ من فراغ، فحقائق التاريخ تصوغها فوق خرائط الجغرافيا. رغم أن « محفوظ» لم يشر أبدا إلي أسبابه في اختيار اسم

---

* كاتب صحفي مصري، نشر بجريدة الشروق، العدد٣١٢٣-٢١أغسطس٢٠١٧.

obeikan.com

ذلك المسلسل التليفزيوني، فإنه لا يصعب علي المشاهد العادي استنتاج قصده؛ فقد اعتاد المصريون لقرون طويلة علي القول بأن «اللي بني مصر كان في الأصل حلواني»، وكان ذلك نوعا من الولع بالوطن ومواطن الجمال فيه، رغم كل ما اعترضه من محن وشدائد وغزوات جاءت أغلبها من الشرق.

بنفس الروح، وصفوا عاصمتهم القاهرة بـ«المحروسة» اعتقادا بأن كل احتلال ينقضي، وكل غزو يهزم بالنهاية، وأنها قادرة علي هضم وتمصير كل الثقافات والحضارات التي مرت بالسلاح فوقها. كما كانوا يطلقون – حتي أوقات قريبة-

علي العاصمة اسم «مصر» كأنها تلخص البلد كله وترمز إيه وحدها. في ذلك شيئ من إرث مصر القديمة الذي تحفظه البرديات : «الكل في واحد». بمعني سري في روح المسلسل، فإن المصري» شايل حمولها ويعدل المايل» ، كما تقول أغنية المقدمة التي كتبها مبدع آخر من ذات القماشة» سيد حجاب»:

«بندق ندق بوابة الحياة بالإيدين ..قومي افتحي لولادك الطيبين قومي»

إلهام الشاعر أمسك بجوهر ما أراده المؤلف. كلاهما مثقف كبير له انحيازاته وأفكاره، التي صاغت تجربته الفنية. «بوابة الحلواني» هي ذاتها « بوابة الحياة». التعبير الأول- ينصرف مباشرة إلي مصر

عنـد حدودهـا الشرقيـة في سـيناء، والـكلام داخـل في صلـب نظريـة الأمن القومـي. تاريخيـا المصـير المـصري تعلـق صعـودا وسـقوطا بالحـروب والغـزوات التـي تعـبر تلـك الحـدود ، إذا مـا هزمـت انكفـأت عـلي جراحهـا، تنهـب مواردهـا، ويسـتبد بشـعبها. وإذا مـا نهضـت، تكتسـب مهابتهـا في جوارهـا.

تلـك قاعـدة رئيسـية في نظريـة الأمـن القومـي بقضيـة الحيـاة نفسـها، وأن إرادة المقاومـة هـي ذاتهـا قصـة مـصر المتألمـة، التـي تبحـث عـن أمـل وتحـن لأيـام عزتهـا حـين «نطـوي الأنـين بالحنـين». وقـد كان حفـر «قنـاة السـويس» حدثـا تاريخيـا محوريـا في التاريـخ المـصري، بـات بعـده البلـد مرهـون بالكامـل لصراعـات النفـوذ والمصالـح الكـبري.

عندمـا علـت أسـواط السـخرة منتصـف القـرن التاسـع عـشر فـوق ظهـور مئـات ألـوف الفلاحـين عنـد حفرهـا ولقـي أغلبهـم حتفـه، كانـت الإمبراطوريتـان الفرنسـية والبريطانيـة تتنازعـان الجوائـز، وامتدت المحنـة حتـي تأميـم القنـاة عـام ١٩٥٦.

يـكاد «بوابـة الحلـواني» أن يكـون الاقـتراب الدرامـي الوحيـد مـن ذلـك الحـدث الحاسـم في التاريـخ المصري الحديـث. لم تسـتغرقه أية أحـكام مطلقـة ولا غابـت عنـه روح الإنصـاف لعـصر الخديو»إسـماعيل» الـذي شـهد طفـرة عمرانيـة وتطـورا في وسـائل الحيـاة والتمـدن، غـير أنـه وقـع في مصيـدة الديـن العـام للإمبراطوريتـين العظميـن بمـا أفـضي

في النهاية إلي التخلص منه بالنفي وتولية ابنه الأكبر»توفيق»، الذي استدعي تاليا الاحتلال البريطاني لقمع الثورة العرابية.

ولعله العمل الأدبي والفني الوحيد، الذي أنصف عصر»إسماعيل»، رغم أن مؤلفه ينتمي بفكره إلي تجربة(٢٣) يوليو، التي أسقطت أسرة «محمد علي». قرأ ملف قناة السويس، وكل ما أتيح من وثائق وشهادات ورسم صورة للعصر يصعب أن يلم بها المؤرخون المحترفون. تعددت مستويات الدراما في نسيج واحد بين ما يجري في قصر الخديو وصراعات حاشيته ووجهاء المجتمع وأصحاب المصالح وممثلي القوي الدولية المتنازعة علي القوة والنفوذ والمواطنين العاديين، كما روح العصر وذائقته الفنية التي تجلت في شخصية الموسيقي الأشهر»عبده الحامولي».

كانت قناة السويس محور العمل بلا منازع، الذي تدور حوله صراعات ومصائر أبطاله. وقد أضفي بطولة إضافية علي قرية نائية مجهولة اسمها «الفرما» أصبح اسمها فيما بعد «بورسعيد». بطولة «الفرما» تعبير درامي وتاريخي عن حجم التحول في اعتبارات الأمن القومي بعد حفر قناة السويس. لقرون طويلة كانت الجيوش تعسكر في منطقة الصالحية علي تخوم محافظة الشرقية، حيث نهاية العمران. إذا ما سقطت الصالحية تحت ضربات أية قوات غازية، تكون القاهرة قد سقطت في نفس

اللحظة، وإذا ما تحركت الجيوش من معسكراتها في اتجاه الشرق، فالتاريخ يأخذ مسارا آخر.

في عمل درامي سابق لـ»محفوظ»، استلهم من التاريخ المصري قصة الصديقين اللدودين، وكلاهما حكم مصر علي التوالي، «سيف الدين قطز» و»الظاهر بيبرس». في طريق عودة الجيش المنتصر علي المغول بعد معركة «عين جالوت» اغتيل»قطز» بتدبير من «بيبرس». في مونولوج طويل فيه حب ومقت، إعجاب وكراهية، ولاء وانتقام، أخذ «بيبرس» يرثي صديقه الذي قتله للتو في رائعة « الكتابة علي لحم يحترق». أي لحم هذا الذي يحترق؟ إنه لحمنا نحن، والكتابة عليه تعلم بقدر ما تجرح وتلهم بحجم ما نستوعب.

بنفس الروح كتب سيناريو فيلم»ناصر٥٦» كأنه استطراد لـ»بوابة الحلواني»؛ فالقصة واحدة ومتصلة بوجوه جديدة وأبطال جدد. وقد كانت رسالته بحجم الأثر الذي أحدثه، إن كل ما له قيمة في هذا البلد يستحيل حذفه، وكل أمل دفع المصريون استحقاقاته لا يتبدد. لم يكن تأميم القناة محض قرار للرئيس الشاب»جمال عبد الناصر»، بقدر ما كان رد اعتبار للوطنية المصرية التي أهينت واستبيحت ممن كان يطلق عليهم أصحاب المصالح.

أي تأويل آخر لا يعرف شيئا عن عمق الجرح المصري،

والتجهيل بالتاريخ يضرب في جذور الأمن القومي. لهذا السبب، تدفقت علي بورسعيد قوافل المتطوعين، حملوا السلاح، وواجهوا العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي، وبدا أن مصر تغيرت وتوشك أن تدخل عصرا جديدا. حسابات الأوطان غير حسابات البقالة، الأولي تضع نصب عينها اعتبارات الأمن القومي، وقد كان التأميم قضية بلد صغير استقل حديثا يطلب الحرية والكرامة والثانية لا تعرف غير لغة الربح والخسارة. بقدر المبادرة والاستعداد لدفع الأثمان، خرجت مصر من السويس دولة كبري مؤثرة بعمق في عالمها وقارتها الإفريقية والعالم الثالث.

هكذا، نظر الأديب الكبير» محفوظ عبد الرحمن»، أحد أبرز مؤسسي الدراما التليفزيونية العربية، إلي أعقد مسائل الأمن القومي، التي هي «بوابة الحلواني» أو « بوابة الحياة».

opelkan.com